﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ [الحديد: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعدَ الوعدِ بالجزاءِ لِمَن آمَن مِن أهلِ الكتابِ؛ بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ هذا العطاءَ فَضْلٌ منه

لمّا كانَ أهلُ الكتابِ قد تابَعوا أهْواءَهُم على بُغضِ الأُمّيّينَ، وأُشرِبتْ قلوبُهم أنَّ النُّبوَّةَ مختصَّةٌ بهم؛ لأنَّهم أولادُ إبراهيمَ ﷺ من ابنةِ عمِّه سارة، والعربُ - وإن كانوا أولادَه - فإنَّهم مِن الأمَةِ هاجرَ، وما دروا أنَّ كونَهم من أولادِه مُرشِّحٌ لنُبوَّةِ بعضِهم، وكونهم من الأمة مهيِّئٌ لعمومِ الرِّسالةِ لأجل عُموم النَّسب؛ لذا أعْلَمَهُم اللهُ تَعالى أنَّهم لا يَقْدرونَ في زمَنٍ مِنَ الأزمان على شيءٍ، وإن قلَّ مِن فَضْلِ اللهِ تَعالى الذي خصَّهم بما خصَّهم به، ولا شيءَ يَمْنَعُ نَزْعَ النُّبوَّة منهم، ووَضْعَها في بني عَمِّهم إسماعيلَ ﷺ الذين كانوا لا يقيمون لهم وزنًا، وليعلموا أنَّ الفضلَ بيد اللهِ تَعالى الذي له الأمرُ كلُّه يؤتيه من يشاءُ منهم أو مِن غَيْرِهم نُبوَّةً كانت أو غيرَها من أفضالِ الله تَعالى ورَحَماتِه، ولمّا كان رُبَّما ظَنَّ ظانٌّ أنَّه لا يَسَعُ جميع النّاس؛ دفَع ذلك بأنَّه سُبحانَهُ هو الذي أحاط بجميع صفاتِ الكمال، وأنَّه مالكُ المُلْكِ؛ فلذلك يخصُّ مَن يَشاءُ بِما شاء، فقَدْ نزَّهَ له التَّنزيه الأعظم جميعَ ما في السَّماوات والأرض، فهو العزيز الحكيمُ الذي لا عزيزَ غيرُه ولا حكيمَ سواه، فانطَبَقَ آخِرُ السّورةِ على أوَّلها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَقۡدِرُونَ﴾: (قدر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مبلغِ الشَّيءِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 325 - 330.

وكُنْهِه ونهايته، فالقَدْرُ: مبلغُ كلِّ شيءٍ، وقدَرْتُ الشَّيءَ أَقْدِرُهُ وأَقْدُرُهُ من التَّقْديرِ[1]، والمعنَى المحوريُّ: ضبطُ الشَّيءِ القابلِ للتَّسيُّبِ أو الانبساطِ وحَكْمُهُ وامتساكُهُ على وضعٍ أو كمٍّ أو مسافةٍ معيَّنَةٍ، فلا يَتَسَيَّبُ، ولا يَستَرْسِلُ، وقَدَر على الشَّيء، واقْتَدَرَ عليه: قَوِيَ عليه، ومنه قولهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾ [الكهف: 45][2]، والمُرادُ بِـ ﴿يَقۡدِرُونَ﴾ في الآية: أنَّهم لا يملِكونَ فضلَ اللهِ ﷻ، ولا يدخُلُ تحت قَدرِهم واستطاعَتِهم[3].

2) ﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾: (فضل) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على زيادةٍ في شيءٍ، من ذلكَ الفضلُ، وهوَ الخيرُ، والزِّيادَةُ عن الاقتصادِ[4]، وذلكَ ضربانِ: محمودٌ، كفضلِ العلمِ والحِلمِ، ومذمومٌ: كفضلِ الغضبِ على ما يجبُ أن يكونَ عليهِ، والفضلُ في المحمودِ أكثرُ استعمالًا، والفُضولُ في المذموم، والفَضْلُ إذا استُعمِلَ لزيادةِ أحدِ الشَّيئينِ على الآخرِ؛ فعلى ثلاثةُ أضْرُبٍ: من حيثُ الجنسُ، والنَّوعُ، والذّاتُ، وكلُّ عطيَّةٍ لا تلزَمُ من يُعْطي يقالُ لها: فَضْلٌ[5]، فالمعنَى المحوريُّ: زيادَةٌ من مادَّةِ الشَّيءِ مُتَمَيِّزَةٌ عنهُ[6]، والمُرادُ بِـ ﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾ ههُنا: دينُ اللهِ تَعالى، وهو الإسْلامُ، أو رزقُ اللهِ تَعالى، أو نِعَمُ اللهِ سُبحانَهُ الَّتي لا تُحْصى[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الفضلُ والنُّبوَّةُ عطاءٌ من اللهِ يهبه من يشاء

هذه آيةٌ مشكِلَةٌ، وليسَ للمُفَسِّرين ولا لأهل المعاني فيها بيانٌ يُنْتَهى إليه، ويُلَفَّق به بين هذه الآية والتي قبلها، وأقوالهُم مختلفة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (قدر).
(3) الثعالبي، الجواهر الحسان: 5/ 396.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (فضل).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (فضل).
(7) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 486.

متدافعة[1]، فهي إمّا لإثباتِ العلم لِمَن لَم يُؤْمِن مِن أهل الكتاب، بأنَّهم لا يَقْدِرونَ على فضل اللّهِ تَعالى باستِحْقاقٍ سابقٍ، إمّا لإثباتِ عدَمِ عِلْمِهِم بذلك، وذهبَ بعضُ أهل العلم إلى أنَّ هذه الآيةَ مُنْصَرِفةٌ للنَّبيِّ ﷺ وأصحابِه، والمعنى على هذا الرَّأي: لئلّا يعتقدَ أهلُ الكتابِ أنَّه لا يَقْدِرُ النَّبيُّ ﷺ والمؤمنونَ به من صحابَتِهِ وأهل الكتاب الذين آمنوا به على شيءٍ من فَضْلِ الله تَعالى، ولا يَنالونَه[2].

وممّا رويَ في نزول هذه الآيةِ أنَّ أهلَ الكتابِ – وهم بنو إسرائيلَ – كانوا يُفَضِّلون أنفسَهم على سائرِ أهلِ الأديانِ؛ بسببِ كونهم أهلَ الكتابِ، ويقولون: الوحيُ والرِّسالةُ فينا، والكتابُ والشَّرعُ ليس إلّا لنا، وأنَّه تعالى خَصَّنا بهذه الفضيلةِ العظيمةِ من بينِ جميعِ العالمينَ، فخاطبَ اللّهُ تعالى فيها مَن آمنَ بالرُّسلِ المتقدِّمةِ، فقال لهم: إنَّكم إنْ تتَّقوا اللّهَ، وتؤمنوا برسولِه ﷺ يؤتكم اللّهُ تَعالى في الآخرة كِفْلَينِ من رحمته، ثُمَّ قال: فَعَلْنا ذلك، وبيَّنّاه لكم، ليَعْلَمَ أهلُ الكتابِ أن لا أجرَ لهم ولا نصيبَ مِن فضلِ اللّهِ تَعالى، وإنْ كانوا مجتهدينَ في التَّدَيُّنِ بدينِ مَنْ بُعِثَ قبلَه؛ لأنَّه كُفرٌ بما فَرَضَ اللّهُ تَعالى عليهم في ذلكَ الوقتِ، فأحبطَ أعمالَهم[3].

فهذه الآيةُ الكريمةُ ردٌّ من اللّهِ – تباركت آلاؤه – على اليهودِ الذينَ زَعموا اختصاصَ النُّبَوَّةِ فيهم، وذلك ليعلمَ، ويَتَحَقَّقَ الذينَ لم يَتَّقوا، ولا آمنوا من أهلِ الكتابِ على ردِّ ما أعطاه اللّهُ تَعالى، ولا إعطاءِ ما منعَ اللّهُ تَعالى، فإنَّهم لا يَقْدِرونَ على أنْ ينالوا شيئًا من فضلِ اللّهِ تَعالى الذي تفضَّلَ به على مَن آمنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، ولا يَقدِرون أن يمنعوا ذلك الفضلَ الذي تفضَّلَ به على المستحقّينَ له، كالنُّبوَّةِ والرِّسالةِ وغيرِهما، وأنَّ الفضلَ – ومنه النُّبوَّةُ والعلمُ والتَّقوى – بيدِ اللّهِ تَعالى، يُعطيهِ مَن يشاءُ، كما آتَى مُحَمَّدًا ﷺ وأصحابَه وأمَّته منه نصيبًا أوفرَ من دينِ الإسلامِ، واللّهُ واسعُ الفضلِ، كثيرُ العطاءِ والخيرِ لِمَن يَشاءُ مِن عبادِه[4].

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 21/ 321.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 191.

(3) محيي الدين شيخ زاده، حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي: 8/ 128 - 129، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 479.

(4) وهبة الزحيلي، التفسير المنير: 27/ 340 - 341.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ الفَصلِ في قولِه: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

بيانُ سببِ الفَضلِ المذكورِ في الآيةِ السّابقةِ

فصلَ النَّظمُ الجليلُ قولَ اللهِ تَعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ عن الآية السّابقة، وهي قولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾؛ لوقوع قولِه: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بيانًا لسبيل الفَضْلِ المذكور في الآيةِ السّابقةِ، وهما الكِفْلانِ مِن رَحْمَتِه والنّور والمغفرة[1]؛ إذْ إنَّ هذا الفضلَ العميمَ من اللهِ تَعالى إنَّما هو جزاءٌ لَمَن آمَنَ برسولِ اللهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وأنَّ فضلَ اللهِ تَعالى لا يقدرُ عليه أحدٌ من أهلِ الكتاب الذين يَزْعُمونَ أنَّ فضلَ اللهِ تعالى محصورٌ في بني إسرائيلَ لا يتعدّاهُم إلى غَيْرِهم، فبيَّنَتِ الآيةُ أنَّهم لا يَقْدِرون على نَيْلِ شيءٍ مِن هذا الفَضْلِ إلّا مِن هذا الطَّريق، وهو الإيمانُ برسولِ اللهِ ﷺ.

دَلالةُ اللّامِ في قولِه: ﴿لِّئَلَّا﴾:

تعليلُ وجوبِ الإيمانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ لنيلِ فضلِ اللهِ تَعالى

اللّامُ في قولِه: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يحتَملُ أن تكونَ تَعْليليَّةً، فيكونُ ما بعدَها معلولًا بما قبلَها، وعليه فَحَرْفُ (لا) يجوزُ أن يكونَ زائدًا للتَّأكيدِ والتَّقويةِ، والمُعَلَّلُ هو ما يَرْجِعُ إلى فضلِ اللهِ تَعالى لا مَحالَةَ، وذلكَ ما تضمَّنَهُ قولُهُ: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾، أو قوله: ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ﴾ إلى ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[2]؛ لبَيانِ عدَمِ اقتدارِ أهل الكتابِ على نَيْلِ أيِّ شيءٍ من فضل اللهِ تَعالى المذكورِ في الآيةِ السّابقة إلّا بالإيمانِ برسولِ اللهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فضلًا عن إيمانهم برسُلِهم وأنبيائهم، فإنَّ الإيمانَ بهم وحدَهُم دونَ الإيمانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ لا يوصِلُهُم إلى هذا الفَضْلِ المذكورِ.

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 21/ 321، ومحيي الدين شيخ زاده، حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي: 8/ 128.

(2) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 430.

دَلالةُ (لا) في قولِه: ﴿لِّئَلَّا﴾ بين النَّفي والتَّوكيدِ:

تـوكـيـدُ عـدمِ اقـتـدارِ أهـلِ الـكـتـابِ على الفَضْلِ إلّا مِن طـريـقِ رسـول اللهِ ﷺ

يجوز أن تكون (لا) في قولِه: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ صلةً للتَّوكيدِ، وهو قولُ جماهيرِ المُفَسِّرين، وهو الأشهر، ويجوز أن تكون نافيةً على أصل وضْعِها، وفصَّلوا القولَ في الرَّأي الأوَّل: إنَّ (لا) صلةٌ في كلِّ كلام دخَلَ عليه نفيٌ، مثلُ الورادِ في قولِه تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: 12]، ويجوز زيادَتُها مع القرينة كثيرًا، أي: لأنْ يَعْلَم أهلُ الكتابِ أنَّهم (لا يَقْدِرونَ على شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللّهِ وأنَّ الفَضْلَ بيَدِ اللّهِ)؛ وذلك لأنَّ اليهودَ قالت: يَخْرُج منّا نبيٌّ يَقْطَع الأيدي والأرجُلَ، فلَمّا خرَجَ مِن العَرَبِ؛ كفروا، فنزلَتِ الآيةُ[1].

نفيُ قـدرةِ أهل الـكـتـابِ على نَيلِ فَضلِ اللهِ تَـعـالى؛ إن لم يؤمنوا برسولِ اللهِ ﷺ

وأمّا القولُ: إنَّها على أصلِ مَعْناها في النَّفي، فهو قولُ عددٍ من المُفَسِّرين، وتقديرُ المعنى عندهم: لئلّا يعتقدَ أهلُ الكتابِ أنَّهم يقدرونَ على حصرِ فضلِ اللّه تَعالى وإحسانه في قومٍ مُعَيَّنين، وعلى هذا الرَّأي؛ فإنَّ دعوى زيادة (لا) لا داعيَ إليها، وأنَّ بقاءَها على أصلِ معناها، وهو النَّفْيُ مُتَعَيِّنٌ، وتُجعَلُ اللّامُ للعاقبةِ، أي: أعطيناكم هذا الفضلَ، وحُرِمَ منه أهلُ الكتابِ الذينَ لم يؤمنوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فبقيَ أهلُ الكتابِ في جهلِهم وغرورِهم بأنَّ لهم الفضلَ المستمرَّ، ولا يحصلُ لهم علمٌ بانتفاءِ أن يكونوا يملكونَ فضلَ اللّهِ تَعالى، ولا أنَّ اللّهَ تَعالى قد أعطى الفضلَ قومًا آخرين، وحرَمَهم إيّاه، فيَنْسَونَ أنَّ الفضلَ بيد اللّهِ سُبحانَهُ، وليس أحدٌ يستحقُّه بالذّاتِ، وبهذا الغرورِ استَمَرّوا على التَّمسُّكِ بدينِهم القديمِ، ومعلومٌ أنَّ لامَ العاقبةِ أصلُها التَّعليلُ المجازيُّ، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: 8][2].

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 258، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 267، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 192.

(2) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 430.

دَلالةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبير باللّام دون (كي)؛ لتعليل سببِ عدَمِ نَيْلِ أهلِ الكتابِ لِفَضْلِ اللّهِ تَعالى في قولِه: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك للدَّلالةِ على سعَةِ مَعْنى التَّعليل وقوَّتِه؛ إذْ هيَ أوسعُ استعمالًا من (كَي)، فهي تدخلُ على الفعلِ المضارعِ وغيرِه؛ لبيانِ العِلَّة، وذلكَ نحو قولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: 25]، ونحو: (جئتُ لطلبِ العلم)، وعند النُّحاة أنَّه يُفيد التَّعليل، سواءٌ اقْتَرَن بـ (كي) أم لَم يَقْتَرِن[1]؛ ولهذه السَّعة والأصالة في الاستعمال ولحاجَةِ السّياق إلى تقويةِ التَّعليل على نحوٍ أقوى؛ آثرَ النَّظمُ استعمالَ اللّامِ لتقويةِ مَعْنى التَّعليل.

اللّامُ أقوى في بيانِ التَّعليل مِن (كي)

دَلالةُ التَّعبيرِ بالعلمِ دونَ الاعتقادِ:

آثر النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بمادَّةِ العلم ﴿يَعْلَمَ﴾ دونَ الاعتقادِ، في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ وذلك لأنَّ العِلْمَ في اللُّغة: إدراكُ الشَّيء بحقيقَتِه ودَليلِه، وهو مأخوذٌ من العلامةِ، وهي السِّمَة التي تُمَيِّز الشَّيء، أو مِن العَلَم، وهو الدَّليل على أمرٍ ما[2]، وأمّا الاعتقادُ؛ فهو اسمٌ لِجِنْسِ الفِعْل على أيِّ وجه وقعَ اعْتِقادُه، والأصْل فيه أنَّه مُشَبَّه بعقد الحَبل والخَيْط، فالعالمُ بالشَّيء على ما هوَ بِهِ كالعاقِد المُحكم لِما عَقَدَه[3]، ولمّا كان المرادُ بالسّياقِ هَهُنا نفيَ عِلْم أهلِ الكِتاب بدَليلِه المَقرونِ به بِقُدرَتِهم على الوصولِ إلى فَضْلِ اللّهِ تَعالى، ونفيَ أن يكون لهم دليلٌ أو شبهُ دليلٍ؛ جاء النَّظمُ باستعمالِ فعلِ ﴿يَعْلَمَ﴾ دون (يعتَقِد).

ليسَ لأهلِ الكِتابِ دليلٌ صحيحٌ على أحقيَّتِهم لِلفضل

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعل: ﴿يَعْلَمَ﴾ مضارعًا:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ عن نفْيِ علمِ أهل الكتاب بمَقْدِرَتِهم على

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 353.
(2) الراغب، مفردات القرآن، وابن منظور، لسان العرب: (علم).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 92.

شيءٍ من فضل اللهِ تَعالى، وأنَّه لا جزاءَ لعِبادَتِهم بعدَ بعثَةِ النَّبيِّ ﷺ بصيغة المضارعة في قوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ لتجديدِ نفي عِلْمِهم، فلا يظنُّ ظانٌّ منهم في وقتٍ من الأوقاتِ هذا الظنَّ مرَّةً أخرى، وكلَّما تجدَّدت هذه الفكرةُ المُستَعْلِيَةُ على خلقِ اللهِ تَعالى من غيرِ بَني إسرائيل؛ تجدَّدَ نفي عِلْمِهم، فيظلّون على هذا الحالِ مِن نَفْيِ العِلْمِ أبدًا.

تجدُّدُ نفي عِلْمِهم بسبَبِ عدَمِ إيمانِهم برَسولِ اللهِ ﷺ

سِرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

استعملَ النَّظمُ الجليلُ اسم ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ في هذا الموضع دونَ اسم اليهودِ والنَّصارى؛ لامتزاج التَّرهيب مِن عدَمِ الإيمان برسولِ اللهِ ﷺ بالتَّرغيب في الإيمان به؛ إذ الملاحظُ أنَّ القرآن الكريمَ قد استعملَ في مخاطبةِ اليهودِ والنَّصارى عدَّةَ أساليبَ، مثل: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: 64]، و﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 40]، بهدَفِ التَّأثيرِ على المخاطَبِ واستنهاضِ الهِمَمِ، وهزِّ المشاعر؛ لأنَّ فيه تذكيرًا لَهُم بتِلْكَ النِّعمةِ العَظيمَةِ، مِن إنْزالِهِ تلكَ الكُتُبَ ذاتَ المكانَةِ السّاميَة، وهذا التَّذكيرُ لَهُم بذلكَ يتضمَّن أيضًا التَّوبيخ اللّاذع لَهُم على تقصيرِهم وأفعالِهم القَبيحَة، فَخِطابُهُم بصِفَةِ المَدْحِ وهي ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مع إقامَتِهم على الباطل وما لا يَليقُ فيه أعظَمُ تبكيتٍ، وأعظَمُ تأنيبٍ، وأعظَمُ تقريعٍ لَهُم، وفيه كذلكَ حثٌّ لَهُم على قَبولِ ما جاء به مُحَمَّد ﷺ؛ لأنَّه جاء بكتابٍ، وهُم كذلك أهلُ كِتابٍ؛ فهو احتجاجٌ عليهم بأنَّ الإيمانَ بالكتابِ الذي عِنْدَهُم يَقْتَضي الإيمانَ بالكتابِ الذي جاء به؛ لأنَّهُ مِن جِنْسِه[1].

ترغيبُ اليَهودِ والنَّصارى وتَرْهيبُهُم بِذِكْرِ الكتابِ المنزَّل مِن عند اللهِ تَعالى

سِرُّ التَّعبيرِ بالكتابِ:

عدلَ النَّظمُ القرآنيُّ عن استعمالِ اسْم (أهل التَّوراةِ والإنجيل) إلى اسم ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ لأنَّ فيه تذكيرًا بشرفِ الكتابِ وعظمِ

(1) مجموعة من المؤلفين، موسوعة التفسير الموضوعي: (أهل الكتاب): 6/ 150.

منزلتهِ عندَ اللّهِ تَعالى، من حيث إنَّ أصلَ الكتابِ هو الوحيُ الإلهيُّ المجموعُ بينَ دَفَّتي كتابٍ كريم، وهو العُنْصُر الجامِعُ بينَ الرِّسالات السَّماويَّة كلّها، فكلُّها تشترك في كونِها وحيًا إلهيًّا، جُمِعَ لحِفْظِ أركانِ الدّين مِنَ التَّحريف والتَّبديل، فالتَّعبير به أنسَبُ لسياقِ التَّذكير بأهمّيَّةِ رسالة الإسلام.

الجامعُ بين الرِّسالاتِ السَّماويَّةِ أنَّها ذاتُ كتبٍ

دَلالةُ التَّعبيرِ بِقولِه: ﴿أَلَّا﴾:

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ جاءَتْ ﴿أَلَّا﴾ مكونةً من (أنْ) المخفَّفةِ مِن الثَّقيلة، واسْمِها ضميرِ الشَّأن[1]، وفي العدولِ عن التَّعبير بأصل الكلام: (أنَّهم لا يَقْدِرونَ) إلى ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾ تتَمَثَّلُ في رغبةِ النَّظمِ الكريم في سُرعةِ الإخبارِ عن عدمِ قُدْرَتِهم على شيءٍ من فضلِ اللّهِ تَعالى، وكذلك لكون التَّعبير بِها أوْجَزَ، والإيجازُ البليغُ المعَبِّرُ مِن أهمِّ سِمات النَّظم المُعْجِز.

في سُرعةِ بيانِ عدمِ قدرةِ أهلِ الكتابِ إمعانٌ في إثباتِ القدرةِ للهِ تَعالى

دَلالةُ التَّعبيرِ بِنَفْيِ القُدْرَةِ في قولِه: ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ نفي القدرةِ على نفي النَّيلِ، في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾؛ لأنَّ نفي القدرةِ يَنْفي وجودَ الطّاقة أو الاستطاعة مِن أساسِها، وأمّا نفيُ النَّيل؛ فقد يوحي بإمكان الوصولِ؛ إذِ المَعْنى المحوريُّ للنَّيل: أنَّهُ حَوْزٌ بتَمَيُّزٍ وقوَّةٍ ونوعٍ من الاسترسالِ، وفيه مَعْنى الأخْذِ[2]، فكانَ نفيُ القُدْرَة أبلَغَ وأمنَعَ لَهُم مِنَ الاقْتِدار على أيِّ شيءٍ مِن فَضْلِ اللّهِ تَعالى دون الإيمانِ برَسولِ اللّهِ ﷺ.

نفيُ القدرةِ ينفي وُجودَ الطّاقة أو الاستطاعَةِ مِن أساسِها

بَلاغةُ الكِنايةِ في قولِه: ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾:

أشارَ الرَّأي – الذي أثبت النَّفي بـ (لا)، وأنَّها على أصل عَمَلِها، وأنَّها ليست صلةً للتَّوكيدِ – إلى أنَّ المرادَ بقولِه تَعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ

عدمِ القدرةِ على العلم كنايةٌ عن الجهلِ المرَكَّبِ والختمِ على القلوبِ

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 258، والخطيب ومصلوح والعلوش، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 27/ 341.

(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نول - نيل).

﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ هو عدم العلم، بمعنى الخَتْم على القلوب؛ إذ المعنى على هذا التَّقدير: لا تَكْتَرِثوا بعدم علم أهلِ الكتابِ بأنَّهم لا يَقْدِرونَ على شيءٍ من فضلِ اللهِ تَعالى، وبأنَّ الفضلَ بيدِ اللهِ تَعالى يؤتيهِ من يشاءُ، أي: لا تَكْتَرِثوا بجَهْلِهِم المُرَكَّب في استِمْرارِهِم على الاغترارِ بأنَّ لَهُم منزلةً عندَ اللهِ تَعالى؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَهُ عالمٌ بذلكَ، وهو خَلَقَهم، فهُم لا يُقْلِعونَ عنه، وهذا مثلُ قولِه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: 7]، وأمّا على إثباتِ العلمِ لَهُم؛ فالآيةُ في معنى الوعيدِ بإحباطِ العملِ ونفي الأفضليَّةِ التي يَزْعُمونَها لأنفُسِهم، وأنَّها إعلامٌ لهُم بنَسْخِ رسالَتِهم التي يَفْتَخِرونَ بها[1].

بَلاغةُ تَخصيصِ أهلِ الكِتابِ بالذِّكْرِ:

حَسَدُ مَن لَم يُؤْمِن مِن أهل الكتابِ سببٌ في تَذْكيرِهِم بِبُطْلانِ عَمَلِهِم ونَسْخِ رِسالَتِهِم

خصَّ النَّظمُ الجليلُ أهلَ الكتابِ بالذِّكرِ دونَ غيرِهِم؛ لأنَّهم لَمّا نزل الوعدُ بالجزاء الجزيل في الآية السّابقة بإيتاءِ الأجْرِ مَرَّتين، وآمَن مَن آمَنَ مِنْهُم؛ حَسَدَهم الذين لم يؤمنوا، فأنزل اللّهُ تعالى قوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: الذين لَم يُؤْمِنوا بمُحَمَّدٍ ﷺ وحَسَدوا المُؤْمِنين مِنْهُم أنَّهم لا يقدرون على شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ تَعالى، والمعنى: جَعَلْنا الأجْرَيْنِ لِمَن آمَنَ بمُحَمَّدٍ ﷺ؛ ليعلمَ الذين لَم يُؤْمِنوا مِنْهُم أنَّهم لا أجْرَ لَهُم، ولا نَصيب لهم في فضل الله تَعالى، فآتى المُؤْمِنين مِنْهُم أجرين[2].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بِحرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾:

استعلاءُ فضلِ اللهِ تعالى على كلِّ الخلقِ

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ باستعمالِ حرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾، في أصل معناه الذي يفيد الاستعلاءَ[3]، في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ

(1) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 431.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 21/ 321.
(3) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 47.

شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ فضلَ اللّهِ تَعالى مستعلٍ على وهْمِ الواهمينَ وزَعْمِ الزّاعمين مِن أهْلِ الكتاب وغيرِهم بأفْضَليَّتِهم على غَيْرِهم مِنَ الرِّسالة لتَوالي الرُّسُلِ والوَحْيِ فيهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿شَيْءٍ﴾ مُنَكَّرًا:

جاء لفظُ ﴿شَيْءٍ﴾ نَكِرَةً في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ التَّقليل والتَّحقير، وفي ذلك دلالةٌ على مُطْلَقِ حرمانِ مَن لَم يُؤْمِن برَسولِ اللّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ من أيِّ فضلٍ للّهِ تَعالى، ولو كان شيئًا نزْرًا قليلًا لا يُؤْبَهُ له[1].

حرمانُ مَن لَم يُؤْمِن بمُحَمَّدٍ ﷺ مِن أيِّ فضلٍ، ولو كانَ قليلًا لا يُؤْبَهُ له

دَلالةُ التَّعبيرِ بِـ ﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾:

جاءتْ ﴿مِّن﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ بيانيَّةً، توضِّحُ الشَّيءَ الذي لا يقدرونَ عليه، وهو فضلُ اللّهِ سُبحانَهُ.

بيانُ الشَّيْءِ الذي لا يَقْدِرونَ عليه

سِرُّ التَّعبيرِ بِالفَضْلِ دونَ الرَّحمةِ:

لمّا كانت الرِّسالةُ والوحيُ والنُّبوَّةُ أمورًا لا تُنالُ بدراسةٍ ولا باجتهادٍ وإنَّما هو محضُ تفضُّلٍ واختيارٍ واصطفاءٍ من اللّهِ تَعالى؛ آثرَ النَّظمُ الجليلُ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ استعمالَ لفظِ (الفضل) دون الرَّحمةِ، وكذلك لأنَّ الفضلَ يدلُّ على زيادةٍ في شيءٍ[2]، وكلُّ عطيَّةٍ لا تلزَمُ من يُعْطي يقالُ لها: فَضْلٌ[3]، والمُرادُ بِـ ﴿فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ هَهُنا: إمّا دينُ اللّه تعالى - وهو الإسْلامُ - وإمّا رزقُهُ، وإمّا نِعَمُ اللّهِ تَعالى الَّتي لا تُحْصى[4]، فكان في استعمالِ لفظِ الفَضْلِ مِنَ المُناسَبةِ ما لا يوجدُ في لفظِ الرَّحمة التي عادةً ما تَخْتَصُّ بالرِّقَّة والإحسانِ[5].

الرِّسالةُ والوحيُ والنُّبوَّةُ أمورٌ لا تُنالُ بدراسةٍ ولا باجْتِهادٍ، بل هي محضُ تفضُّلٍ إلهيٍّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 326، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 9/ 110.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (فضل).
(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 486.
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (رحم).

دَلالةُ إضافةِ لفظ الـ﴿فَضۡلِ﴾ إلى الألوهيَّةِ دونَ الرُّبوبيَّةِ:

النُّبوَّةُ والرِّسالةُ والجزاءُ من أخصِّ سماتِ الألوهيَّةِ

أُضيف الفضلُ إلى الاسم الأحسَن ﴿ٱللَّهِ﴾ في قَوْلِ الله تَعالى: ﴿أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ دون لفظ الرَّب؛ لأنَّ المقام هنا يتعلَّق بأمر نبوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، التي تهدف إلى تعبيدِ النّاس لربِّ العالمين؛ إذ العبادةُ من أخصِّ خصائصِ الألوهيّةِ، ويُراد بالإضافةِ أيضًا تعظيمُ المُضافِ وتشريفُه، وهوَ فَضْلُ النُّبوَّة والرِّسالةِ والجزاءِ؛ إذْ كان من عندِ الله سُبحانَهُ الَّذي لَهُ جميع صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ.

دَلالةُ العطف بالواوِ في قولِه: ﴿وَأَنَّ﴾:

إبرازُ اقتدارِ اللهِ تَعالى وحده على إعطاءِ الفَضْلِ لمَنْ يشاءُ

وصلَ النَّظمُ الجليلُ بالواوِ بينَ قولِه اللهِ تَعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾، وقولِه: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّط بينَ الكمالَيْن: كمالِ الاتِّصال وكمال الانقطاع، فالجملتان كلتاهما خبريَّةٌ لفظًا ومعنًى، وقد أفادَ الجمعُ بينَ الجُملَتَين إبرازَ فضلِ اللهِ ﷻ في أسْمى معانيها، فهو وحدَه سُبحانَهُ صاحبُ الفَضْلِ على كلِّ الخلقِ، ولا سبيل لأحدٍ لنَيْلِ فَضْلِه إلّا بأمرِه وباتِّباعِ نبيِّه ﷺ.

دَلالةُ التَّأكيدِ بِـ(أنَّ):

شدَّةُ إنكارِ مَن لم يؤمنِ برسالةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لأهليَّة المؤمنين لفضلِ اللهِ تَعالى

صدَّر النَّظمُ الجليلُ جملة: ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ بـ(أنَّ) المؤكِّدَةِ لتَنْزيلِ مَن لَم يؤمنْ من أهلِ الكتابِ منزلَةَ مَن يُنكر أنَّ الفَضل بيد الله تَعالى، ومَن يَتَوَهَّمُ أنَّ الفَضْلَ تَبَع لشهواتهم، ولإثبات أنَّ الفضل بيد الله تَعالى، وهو - تباركت آلاؤه - لا يَخْفى عليه مَن هو أهلٌ لِنَوال فَضله، فسواءٌ أنْكَرْتُم هَذا أم لَم تُنْكِروه؛ فإنَّه حقيقةٌ واقعةٌ ثابتةٌ لا مجالَ لإنكارِها أو المماراةِ فيها.

سِرُّ إعادةِ لفظِ ﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾ مُعرَّفًا باللّامِ:

أعادَ النَّظمُ الجليلُ ذكرَ لفظِ ﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾، وعدلَ عن التَّعبيرِ

عنه بالضميرِ، فلم يَقُل: (وأنَّهُ بيدِ اللهِ)، وذلك لأهمّيَّةِ القضيَّةِ المَطْروحةِ هَهُنا، فكانتْ إعادَةُ لفظِ الفضلِ توكيدًا لعدمِ اقتدارِ مَن لَم يُؤْمِنوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ على نيلِ أيِّ شيءٍ من هذا الفضلِ المذكورِ في الآيةِ السّابقةِ، وأُعيدَ لفظُ ﴿ٱلْفَضْلَ﴾ مُعَرَّفًا باللّام؛ للدّلالةِ على أنَّ الفضلَ المقصودَ هو الفضلُ الزّائدُ الَّذي لا يحتاجُ إليهِ مَن هوَ عِنْدَهُ[1]، وهو مضاعفةُ الأجْرِ والنّورِ والمَغْفِرَة.

خطورةُ قضيَّةِ النُّبوَّةِ تَستدعي التَّوكيدَ مِرارًا وتكرارًا

معنى الباءِ في قولِه: ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾:

جاءتِ الباءُ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على المُصاحبةِ والمُلابسةِ، والمرادُ أنَّ التَّفضُّلَ بوَضْعِ النُّبوَّةِ والرِّسالةِ مِنَ الأمورِ الإلهيَّةِ التي لا دَخْلَ لأحدٍ من الخَلْقِ فيها، وأنَّ المرجعَ والمآلَ فيها للهِ تَعالى وحدهُ، فالفضلُ مصاحِبٌ لقدرةِ اللهِ تَعالى ملابسٌ لها، ويصدرُ عنها، والمُصاحَبَةُ هُنا بمعنى قولِ اللهِ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: 124].

الفَضْلُ مصاحبٌ لقدرةِ اللهِ تَعالى، ويصدُرُ عَنْها، ولا دخلَ لأحدٍ مِنَ الخلقِ فيه

بلاغة الكناية في قولِه: ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عن اختصاصِه سُبحانَهُ وحدَهُ بالفَضْلِ دونَ غيرِهِ بقَوْلِه: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾، فهي كناية عَن قُدْرَةِ اللهِ تَعالى وتَصَرُّفه الكاملِ في مُلكِه كما يشاءُ، معَ جواز إرادةِ المَعْنى الأصليِّ، وهو إثباتُ اليَدِ للّه تعالى على وجهٍ يليقُ بجلالِه وعظمَتِه، في ضوءِ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11].

اختصاصُ اللهِ تَعالى بالفضلِ، فلا فضلَ لأحدٍ سواهُ

دَلالةُ الإخبارِ عن الفضلِ بأنَّهُ ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾:

أُخْبِرَ عن الفضلِ بأنَّه بيد اللّه تعالى في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على تَشْريفِ قَدْرِ الفَضْلِ - الذي هو الأجْرُ والنُّبوَّة - وتعظيمِه؛ إذِ الفضلُ صادرٌ عن إرادةِ اللهِ تَعالى وقُدْرَتِه المُطْلَقَة، وفي الإضافةِ أيضًا دلالةٌ على الملكِ التّامِّ لَهُ وحدهَ، بدليلِ إضافة

تشريفُ قدرِ الفضلِ وتعظيمُه لانْتسابِه للذّاتِ العليَّةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 330.

الفَضْلِ لصِفَة ثابتَةٍ مِن صفات اللّهِ تَعالى، فهو المُتَصَرِّف فيه وحده، يهبُه لمَن يشاء، ويمنَعُه عمّن يشاء، فليس الفضلُ أمرًا داخلًا في الاكتساب، بل هو عطاءٌ إلهيٌّ خالص، لا يُنال إلّا بمشيئة اللّه تَعالى، فاللّه سُبحانَهُ هو المُخْتَصُّ بِأَنَّهُ لا كُفْءَ لَهُ، فَلَهُ الأَمْرُ كُلُّهُ ولا أَمْرَ لأحَدٍ مَعَهُ.

سِرُّ التَّعبيرِ بِفعل الإيتاءِ مُضارِعًا:

في الإيتاء عطاءٌ عظيمٌ يليقُ بعظمَةِ فَضْلِ اللّهِ تَعالى وجلاله

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالإيتاءِ في قولِه: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾؛ للدّلالةِ على عظيم مكانةِ فضلِ اللّهِ تعالى؛ إذِ الإيتاءُ لا يُستَعملُ إلّا للشَّيءِ الكثيرِ العظيمِ، كما في قولِه: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: 148]، وفي الإيتاءِ أيضًا قوّةٌ؛ لأنَّه لا يتَوَقَّف على قَبولٍ، ولا يكونُ إلّا عن رضًا وطيبِ نفسٍ، في حين قد يكونُ الإعطاءُ عن كُرهٍ[1]، وجاءَ الفعل ﴿يُؤْتِيهِ﴾ في صيغةِ المضارعةِ؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ فضلِ اللّهِ تَعالى لِمَن يشاءُ وقْتَما يشاءُ؛ ردًّا على زَعْمِ أهلِ الكِتاب باختِصاصِهم وحدَهُم بالنُّبوَّةِ والأجرِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بِالموصول ﴿مَن﴾:

عمـومُ إيتـاءِ الفضلِ لكلِّ من شاءَ اللهُ تَعالى

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ باستعمالِ اسم الموصولِ ﴿مَن﴾ دونَ اسم الموصولِ (الذي)، في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾؛ لأنَّ في ﴿مَن﴾ من العموم والشُّمولِ وعدم التَّعيين ما يُلائِمُ عظمةَ إيتاءِ الفضلِ لمن يشاءُ اللّهُ تَعالى؛ إذ إنَّه يُستعمَلُ للمفردِ والمثَنّى والجَمْعِ، وللمذَّكرِ والمؤنَّث، وللعاقل وغيرِ العاقل، بخلاف اسم الموصولِ (الذي) فهو لا يُستَعمَلُ إلّا مع المفردِ المذكرِ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بِفعل المشيئةِ دونَ الإرادةِ:

المَشيئَةُ حَتْمٌ واجبٌ لازمٌ غيرُ مُتَراخٍ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عن إيتاءِ الفَضْلِ مع فعلِ المشيئَةِ دون فعلِ الإرادةِ في قولِه: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾؛ وذلك

(1) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن، ص: 27 - 29.

لأنَّ المشيئةَ تَقْتَضي الحَتْم والوجودَ والتَّأْقيتَ غيرَ المتراخي، كما في الحديث الشَّريف: «ما شاءَ اللّهُ كانَ، وما لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ»[1]، أمّا الإرادةُ؛ فتكونُ لِما يَتراخى وقْتُه، وليسَت بحَتْمٍ ولا واجِبٍ، ثم إنَّ هناك فرقًا بين الإرادة الشَّرعيَّة الدّينيَّة وبين المشيئة؛ فالإرادة الشَّرعية لا تكون إلّا فيما يحبُّه اللّه تَعالى، وأمّا الإرادةُ الكونيَّة أو المشيئةُ؛ فإنَّها تكون في المحبوب وغيره، فكلُّ ما في العالَم من خير وشرٍّ قَد شاءَهُ اللّه تَعالى، وأرادهُ إرادَةً كونيَّة، وكذلك فإنَّ الإرادةَ قَد تكونُ بحسَبِ القوَّة التَّسخيريَّة والفِكريَّة والحِسّيَّة، ولذلك تُستَعمَل في الجماد، نحو: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: 77]، وفي الحيوان وفي العقلاء، والمشيئةُ لا تكونُ إلّا معَ اختيارٍ، ولذلك لا يُقال إلّا للعالِم والمُتَفكِّر في مشيئَتِه[2]، ولمّا كان المرادُ في هذا السّياقِ إثباتَ عموم القدرةِ على إيتاءِ الفضل؛ عبَّرَ النَّظمُ بالمشيئةِ دونَ الإرادةِ.

سِرُّ حذفِ مَفعولِ ﴿يَشَآءُ﴾:

حـذْفُ فضولِ الكلامِ مِن سِمات البلاغَةِ العاليَةِ

حُذِفَ مفعول المشيئةِ في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾؛ ولو أظْهَرَهُ، فقال: (يؤتيه من يشاءُ إيتاءَهُ)؛ لصارَ الكلام فيه ركاكةٌ، ولا فائدةَ مقصودةَ منه، ومِن أحكام البلاغة العاليةِ ألّا يُنطَقَ بالمحذوفِ، ولا يَظهر في اللَّفْظِ في مثل هذا السّياق؛ لانصبابِ الكلام إلى مشيئةِ اللّهِ تَعالى، فنابَت قَرينةُ الحالِ عن ذكرِ المَفْعول[3].

دَلالةُ العطف بالواوِ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ﴾:

توكيدُ اختصاصِ اللهِ تعالى بالفضلِ والعَظَمَةِ في الإنعامِ بالنُّبوَّةِ والجزاءِ

وصلَ النَّظمُ الجليلُ بالواوِ بينَ قولِه اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾، وقولِه: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّط بين الكمالين: كمالِ الاتِّصال وكمالِ الانقطاع، فالجملتان كلتاهما

(1) رواه أبو داود في سننه برقم: (5075).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 124، والراغب، تفسير الراغب: 1/ 151.
(3) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 163.

خبريَّةٌ لفظًا ومعنًى[1]، وقد أفاد الجمعُ بينَ الجُمْلَتَين إبرازَ قدرة الله ﷻ في أسمى معانيها، فهو وحدَه صاحبُ الفضلِ على كلِّ الخلقِ، ولا سبيل لأحدٍ إلى نيل فضلِه إلّا بأمْرِهِ واتِّباع نبيِّه ﷺ.

بَلاغةُ التَّذييلِ بِجملةِ الفاصلة وإيرادِها اسميَّةً:

دوامُ فضلِ اللهِ تَـعـالى لأهـلِ الإيمانِ

ذَيَّل البيانُ القرآنيُّ الآيةَ والسّورةَ كلَّها بقولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ كنايةً عن حصول منافعَ أخرى لِمَن آمن باللهِ سُبحانَهُ، وآمَن بسائرِ الرُّسل، وفي مقدِّمتهم مُحَمَّدٌ ﷺ، وفي هذه الجملةِ أيضًا اختصارٌ؛ إذ لا يحدُّ عطاءَهُ كلماتٌ، فذيَّل بما يدلُّ على كثرة العطاء لأهلِ الإيمانِ، بذكر الاسمِ الأحسَن (اللّه) الذي يدلُّ على العظمة، وبوصفِ فَضْلِه وعطائه بالعظمَةِ، وبالتَّعبير بالجملةِ الاسميَّةِ الَّتي تدلُّ على الثُّبوت والدَّوام، فإذا كان المُعْطي هو اللّهُ تَعالى، ووُصِفَ عطاؤهُ بالعظمة؛ فأنَّى لكلماتٍ أن تتَّسع لعطائِهِ؟ وفي الجملةِ أيضًا إشارةٌ إلى تَفَضُّله سبحانه بما رزَقَ أهلَ الإسلامِ من عظيمِ الأجر ومُضاعَفَتِه على الرغم من أنْفِ مَن كَفَرَ من بَني إسرائيلَ الزّاعمين اخْتِصاصَهُم بالنُّبوَّة والوحي والرِّسالةِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بِالاسمِ الأحسَنِ مُظْهَرًا:

بـعْـثُ الأمـلِ في نفوسِ المؤمنينَ وشـدُّ عزائمهم فـي مـواجـهَـةِ مَـزاعِـمِ أهْـلِ الكِتابِ

أتت الآيةُ بالاسْمِ الظَّاهرِ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ دون التَّعبير بالضَّمير، فلم يقل: (وهو ذو الفضلِ العَظيم)؛ لزيادَةِ التَّقريرِ والإيضاحِ والتَّوكيد، وليَبْعَث في النُّفوس الأملَ بفضلِ الإلهِ العظيم، ولأنَّ الاسْمَ الأحسَنَ (اللّه) جامِعٌ لكلِّ صفاتِ الكمالِ، الَّتي تشتمل على كلِّ أنواع العطاءِ والفضْلِ، مِن عطاءِ الرَّحمةِ وعطاء المغفرة وعطاء السَّتْر وغيرها.

دَلالةُ التَّعبيرِ بِـ ﴿ذُو﴾:

الوَصْفُ بـ ﴿ذُو﴾ أشرفُ عند أهلِ المعاني من الوصف بـ (صاحب)؛

(1) بسيوني فيود، علم المعاني، ص: 477.

لأنَّهم ذَكَروا أنَّ ﴿ذُو﴾ لا تكونُ إلَّا مضافة لاسمٍ، فمدلولُها أشرفُ[1]، فناسب مجيءُ الوصفِ في الآية بـ ﴿ذُو﴾؛ لإضافته إلى صِفَةٍ عظيمة، والمعنى: ذو فضلٍ يتفضَّل به على مَن أحبَّ، وشاءَ مِن خلقه[2]؛ إذ العظيمُ لا بُدَّ وأن يكونَ إحسانُه عظيمًا، والمرادُ: تعظيمُ حالِ مُحَمَّدٍ ﷺ في نُبوَّته وشَرعِه وكتابه[3].

سِرُّ تَكرارِ لفظِ الفَضلِ في الآية:

بيانُ مزيَّةِ الفَضْلِ الإلهيّ، وتوكيدُ الرَّدِّ على أهلِ الكتابِ

كرَّرَ النَّظمُ الجليلُ لفظَ الفَضْلِ في الآيةِ ثلاثَ مَرّات؛ لبيانِ مزيَّةِ هذا الفضلِ الإلهيِّ المتمثِّل في النُّبوَّةِ والجزاء الجَزيل على ما زَعَمَهُ أهلُ الكتاب مِن اختِصاصِهم بالوَحْيِ والرِّسالةِ، وفيه تذكيرٌ بزوالِ فَضْلِهم، وإثباتُ فضلِ اللهِ تَعالى على المؤمنين مِن أهْلِ الكِتابِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ خاصَّةً والمؤمنين عامَّةً، ولتوكيدِ هذا المعنى الجليلِ وترسيخِه في النُّفوسِ.

دَلالةُ وصفِ الفَضلِ بِـ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾:

الاتساعِ الدلالي يقتضي الوصفَ بالعظمةِ

آثرَ النَّظمُ الجليلُ وصفَ فضلِ اللهِ تَعالى بالعظمةِ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ وذلك لاتِّساعِ دلالةِ مفردة ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ في المعنى ما لا تَتَّسع له دلالةُ (الكبير)، فالعظيمُ: صفة مشبَّهَةٌ لمنِ اتَّصف بالعظمَةِ، والعظمَةُ معناها: الكِبَرُ والاتِّساع وعلوُّ الشَّأنِ والارتفاع، يقال: عَظُمَ، أي: كَبُرَ، واتَّسَعَ، وعلا شأنُهُ، وارتفع[4]، وكلُّ هذه معانٍ تُراعى في اسمِهِ تَعالى (العظيم)، وفي معنى التَّعظيم يأتي اسمُه تَعالى الكبير، وكذا اسمُهُ الواسع، وكذا يأتي معنى التَّبجيل لله تَعالى، ولمّا كان السّياق دالًّا على عظمةِ أجْرِ المؤمنين ومبيِّنًا لاختصاصِه وحده تَعالى بالأجْرِ العَظيمِ؛ كان الوصفُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/ 546.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 6/ 518.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 476.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عظم).

بالعظمَةِ أوْلى؛ لنسبتِهِ إلى اللّه سُبحانَهُ، وأمّا إذا لم يُنْسَب الفضلُ إلى اللّه تَعالى، بَل ورد مطلقًا غيرَ مقيَّدٍ؛ كان وصفُهُ بالكِبَرِ، كما في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢﴾ [الشورى: 22].

دَلالةُ التَّعريفِ في قولِه: ﴿ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾:

الاختصاصُ يَقْتَضي التَّعريف

جاءَ النَّظْم هَهُنا بتعريف الفَضْلِ وصِفَتِه في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، وجاء في أواخرِ سورة آل عمران قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران: 174]، بتنكير كلمة ﴿فَضۡلٍ﴾ [آل عمران: 174]، وتبعَها في التَّنكير كلمةُ ﴿عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران: 174]؛ لوقوعِها نعتًا لنكرة، ووجهُ ذلك أنَّه لمّا كان المقصودُ بالفضلِ هنا النُّبوَّةَ والرِّسالةَ والجزاء الجزيلَ الذي خصَّ اللّه تَعالى به المؤمنين من أمَّةِ نبيِّه ﷺ؛ ناسبَهُ تعريفُ الفَضلِ والوصفِ التّابع له؛ وذلك للخُصوص، بخلاف الموضع الأخيرِ مِنَ سورة آل عمرانَ، فهو في موضع العُموم؛ لمجيئِهِ في سياق تَوابِع أحداث غَزْوَة أحد، والفَضلُ فيها عامٌّ للرَّسولِ صلى اللّه عليه سلم وللمؤمنين.

بَلاغةُ تَعَلُّقِ عَجُزِ السّورةِ بِمطلَعِها:

تنزيهُ الخلق لله تَعالى أعظم تنزيه؛ لعزَّته وحكمَتِه وعُموم فَضْلِه وعَظَمَتِه

اشتَمَل خِتامُ السّورة في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، على تنزيهِ اللّهِ تَعالى تنزيهًا عظيمًا فيه معنى العزَّةِ والعظمة، وفيه كذلك معنى الحكمةِ البالغةِ بوضعِ الفضل في موضعِه الرَّشيد السَّديد، فلا يقدرُ أحدٌ على الاعتراضِ بوَجْهٍ مِنَ الوجوهِ، ومِن ثَمَّ فقد نزَّه له التَّنزيهَ الأعظمَ جميعُ ما في السَّماوات والأرض، وسبَّحوا بفضله وعظمته وحكمته، فهو العزيزُ الحكيمُ الذي لا عزيزَ غيرُه ولا حكيمَ سواه، فانطَبَقَ آخِرُ السّورةِ على أوَّلها، ورجع مِفْصَلُها على مَوْصِلِها[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 330.

ومن أوجُه التَّناسُب بين المطلع والختام: أنَّ الله تعالى قال في مَطْلَع السّورة: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقال سُبحانَه: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، وذَكَر فَضْلَهُ في آخِر السّورة في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، فذكر أنَّ له الملكَ العظيمَ في بداية السّورة، وذكر فَضْلَهُ العَظيمَ في خاتِمَتِها، فالذي له ملكُ السَّماوات والأرض هو ذو الفَضْلِ العظيم.

ومنها أيضًا أنَّ الله ﷻ قال: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، وقال في خاتِمَتِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾، فأمَرَهُم اللهُ تعالى بالإيمان به وبالرَّسول ﷺ وبالإنفاقِ في سَبيلِه أوَّلًا، وأمَرَهُم بتَقْوى الله تعالى والإيمان برَسولِه ﷺ في الختام، وذَكَرَ أنَّ للذين آمنوا، وأنفقوا، أجرًا كبيرًا في البَدْءِ، وأنَّ الذين اتَّقوا، وآمَنوا برَسولِه، يُؤْتيهم كِفْلَيْنِ من رَحْمَتِه في الخاتِمَةِ، والأجر الكبير من جُمْلَةِ رَحْمَتِه ﷻ[1].

(1) فاضل السامرائي، التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم، ص: 70 - 71.

الجُزْءُ
الثَّامِنُ وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ المُجَادِلَةِ

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الستون،
سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 60 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-66-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 60 : المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-66-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5294607 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"